كان منصور في منتصف صلاة الظهر داخل المسجد ، وبدون سابق انذار اختفت ملابسه وملابس جميع المصلين و أصبحوا عراة تماما ، ما جعلهم يغادرون المسجد للحصول على أي قطعة قماش تسترهم .

عشرات المصلين على وجوههم علامات الصدمة ، مهرولين خارجين من المسجد لا يدركون إلى أين يذهبون وصوت صرخاتهم تدوي كهزيم الرعد في أصقاعه.

من الجيد أن بيت منصور بالقرب من المسجد فقد تورد وجهه حتى بات يشعر بنبضات قلبه عليه، وأخذ بالإحمرار وكأنه على وشك الإنفجار، و ضاق نفسه بشدة، بضع خطوات فقط تفصله عن الفرج لكنها في حالة كهذه تبدو كالأميال فما بالك لو كان بيته يبعد أميالا ؟؟ بعد خروجه من المسجد كان من الجيد رؤية الشارع وهو خالي من الناس ـ عدا العراة أمثاله ـ ربما يوجد فقط شخصين أو ثلاثة، ليس هذا وحسب بل ولحسن حظه أنه وجد الباب مفتوحا ما جعله يدخل وينسل لغرفته دون أن ينتبه له أحد ، وإلى حين ارتدائه للملابس لم يكن يفكر ابدا في هذه

الحادثة الغريبة ، ففقدان الملابس بتلك الطريقة المرعبة يوازي فقدان العقل تماما، بعد أن كسى نفسه عاد جهازه التنفسي للعمل مرة أخرى ، أصيب ببعض الدوار المزعج ورغبة شديدة بالتقيء لكنه قاومها ببسالة، و قام برمي بعض الملابس للناس من نافذة غرفته المطلة على المسجد لمساعدتهم ، وكانوا في حالة فوضى وهيجان تلك الملابس التي رماها لهم و الاقتتال عليها جعلته يشعر وكأنه يعطي بعض رشفات من الماء لمجموعة كبيرة من البشر العطشى، وكان من الجيد أنهم في فصل الصيف حيث لا يتطلب الأمر الكثير من الملابس، لم يستغرقوا سوى بضعة دقائق حتى اكتسى الجميع بالملابس بفضل منصور و جميع أبناء ذلك الحي الذين لم يقسروا إزاء ذلك .

بدأ الآن عقله يشتغل ببطء وكأنه محرك وبدأ يفكر في نفسه :

ـ كيف حدث هذا نعم لقد اختفت بطرفة عين

وأثناء تذكره للحدث ومحاولة إيجاد تفسير منطقي ، تغلغل بداخله حرج عظيم نتيجة تذكره لذلك المنظر الصادم، ما جعله يضرب رأسه عددا من المرات كما كان يفعل مع حاسوبه القديم إذا ما أصابه عطل .

خرج يستمع للمصلين الذين في الشارع ، والذين بدأوا بالحديث عن الأمر في شكل جماعات متفاوتة الأحجام ذوي الملابس الغريبة والمضحكة، إذ كانت الغاية منها الستر فقط وكل شخص يمنح تفسيره الخاص للأمر، وكل شخص يروي لغيره كيف استطاع أن يستر نفسه بطريقة ما كان الفضل لخياله في تشكيلها وذلك لتجنب الحرج الذي وقعوا فيه، تملك منصور شعور أنه بات في عداد المجانين و هذا هو التفسير الوحيد المتوفر لديه ، لكنه سرعان ما ألغاه، وأثناء ذلك قد قام بفتح هاتفه ووجد أن الفيديوهات إنتشرت بسرعة فقد كان هناك من صورهم بتلك الهيئة ونشرها، كان يبحث عن نفسه فقط متجنبا غرابة الموقف ليتأكد من أنه لم يتم تصويره ، لا إنتظر قليلا هذا ليس المسجد الخاص بهذا الحي إنه مسجد موجود في ولاية

أخرى إنه ناصع البياض ولا توجد حوله أشجار بينما هذا المسجد يحمل لون البياض لكن نقوشه كانت بلون الزمرد ، والأشجار الملقمة بطريقة مربعة قد استغلها بعض المصلين قبل قليل للإختباء خلفها ، لم يكن مسجدا واحد بل كان العديد من المساجد على كافة الوطن، الوطن ؟! لا لم يكن كذلك فإحدى الفيديوهات كان من سجلها يتكلم بلهجة خليجية، فيديو آخر من الواضح أنه في مصر، وأخر وآخر ...

ـ يبدو أنها إقتراب الساعة

ـ نعم من الواضح أن العالم سينتهي

ـ لكن أنظر السماء زرقاء والجو جميل .

قالها أحد المتفائلين .

ـ هل بحثت في كل الدول الإسلامية؟؟

ـ نعم كل الدول كانت مثلنا تماما .

زاد الحشد حول المسجد ، إذ أن هناك أشخاص لم يعرفوا طريقا للمسجد طوال حياتهم لكن الفضول نومهم و قادهم إلى كبده، وكان الجميع قد اتفق أنها نهاية العالم وهم ينظرون للفيديوهات وكيف أن جميع الأماكن التي في العالم العربي قد أصيبت بنفس ما أصاب هذه المدينة ، إذ يوجد في هذه المدينة ـ التي تعتبر صغيرة نسبيا ـ ثلاثة مساجد والرابع في طور البناء ، وكلهم تلبستهم " اللعنة " كما أطلق عليها الناس حديثا، لعنة عظيمة تبين مدى غضب الله عز وجل عليهم .

حضر الإمام الخاص بالمسجد ، وأخبرهم أن يؤدوا صلاة العصر ـ التي لم يتبقى الكثير عليها ـ ، لكن الجميع سكت ولم يرغب بتكرار التجربة المريعة.

لذا أخبرهم أن كل شخص يرغب بالدخول أن يحضر ملابس إحتياطية يتركها عند باب المسجد في حال تكرار الأمر ، تشجع على إثرها بعض الأشخاص قد بلغوا حوالي العشرين تقريبا لم

يكن منصور من بينهم، أحضروا ملابس من منازلهم تكون سريعة الملبس ، وأخبرهم أن ينجلي أثناء الصلاة جميع من لا يرغب بالدخول للجهة الأخرى من المسجد وأن لا يسمحوا بأي أحد بالعبور .

كان منصور وسط الحشود التي لم ترغب بالدخول ، يوقف الناس الفضوليين من العبور للجهة الأخرى التي يقع فيها المسجد، وكان أكثرهم أطفالا .

عندها جائهم الإمام و باقي الأشخاص و من الواضح أن ملابسهم تغيرت، وهذا يعني أن الوضع لم يتغير، وهكذا دامت هذه اللعنة كل أصقاع الوطن العربي والإسلامي بل كل أصقاع العالم ، وبحث المسلمين عن أي مكان لم تطال إليه هذه اللعنة لكن لم يكن له وجود .

لقد مرت ستة أشهر لم تطل قدما مسجدا ، تأزمت حالة جد منصور المرضية ، فلم يكن كجد بالنسبة له بل كأب فقد اهتم به وبأمه بعد موت والده الذي لا يتذكره .

إذا سألتني ما هو مرضه فهو مجموعة من عدة أمراض السكري إرتفاع ضغط الدم ، وعدد من الأمراض التي نسيها منصور .

كان جده مضطجعا في مكانه كالعادة، وقد بلغ من الكبر عتيا، ذو لحية عظيمة كثة قد غزاها الشيب وعينين بهت لونهما ووجه انتشر فيه داء النحافة ، كان كلما دخل عليه منصور يسأله عن أي أخبار عن اللعنة وكل مرة يجيبه بنفس الإجابة :

ـ مازالت اللعنة لم تختفي ومازال الجميع يصلي في منزله كالنساء.

لكن في ذلك اليوم بعد أن جهزت أم منصور الكرسي الخشبي العتيق لأبيها ليجلس عليه بعد أن تعب من الاضطجاع ، أخبره الجد بإيجاز ولا لف أو دوران كعادته ـ حتى صحته لا تحتمل اللف والدوران ـ أنه يعرف مكانا خاليا من اللعنة .

ليجيب منصور متحمسا:

ـ ماهو هذا المكان ، أخبرني به ياجد لأخبر الجميع لقد بحثو في كل شبر من الأرض ولم يجدوا وقد بنوا مساجد جديدة، لكن دون جدوى.

ثم فكر بعد طرح السؤال في نفسه :

ـ كيف لجميع الناس من أنحاء العالم لم يجدوا مكانا واحد خالي من اللعنة وجدي الذي بالكاد يخرج من المنزل يعرف المكان ؟؟

ـ ليس لأنني لا أخرج تظن أنني لا أعرفه، إنني أعرفه جيدا صدقني .

قال تلك الكلمات وكأنه قرأ ما في عقل منصور ماجعله مدهوشا، وأضاف الجد بصوته الرخيم البطيء :

ـ حتى لو أخبرتهم لن يستمعوا إليك .

عندها نام بسرعة، تلك هي إحدى أعراض أمراضه المتراكمة النوم بدون سابق إنذار، تركه منصور وخرج .

منذ تلك اللحظة ومنصور يفكر في المكان، وكان كل يوم يتوسل جده أن يخبره به لكن للأسف لم يحصل ذلك، لذا زادت رغبته الجامحة بمعرفته.

بدأ بالبحث في أغراضه عله يجد شيئا ولم يجد وأخبر أمه بيد أن جده يحبها ولكنه لم يخبرها أيضا، وبعد مدة أخبر بها إمام المسجد "علي" والذي رأى منصور شرارة الحماس بعد أن أخبره بذلك ، هكذا أحضر الإمام "علي" إمام مسجد أخر يعتبر صديقه، وذهبا رفقة منصور إلى بيت الجد "منصور" هكذا كان إسمه، وقد إستقبلهم الجد بحفاوة في غرفته العتيقة الكبيرة التي امتدت لسنوات طوال، والتي يرتاح فيها ويشم عبرها رائحة الزمن الجميل الغابر .

إذا كنت تتساءل كيف اقتنع الإمام " علي" وصديقه بتلك السهولة؟؟، بسبب خبر من فتى صغير نسبيا أن جده الشيخ الذي قد نال منه المرض يعرف مكانا لم تحتضنه اللعنة بعد، سأخبرك، تخيل أن في هذه مدينة وفي كل بقاع العالم أن المساجد ولستة أشهر، لم يؤدي أحد صلاة الجماعة فيها، بل

يؤدون صلاتهم في منازلهم ، تخيل أن المساجد أصبحت كالمنازل المهجورة، تخيل أن ذلك الشعور الرائع بتأدية الصلاة مع رائحة المسجد الطاهرة مع جماعة كلهم خاضعين لله سبحانه وتعالى، منغمسين فيها كأنها آخر ما يفعلونه ، ذاك الشعور افتقده الجميع .

وذلك الفقد زاد من جنون رغبتهم وحماسهم ، لذا وكما قلت أنهم داروا كل العالم لإيجاد مكان خارج اللعنة.

كما أن منصور لوحده يظل بالساعات منصتا للأخبار لإيجاد أي خيط أمل ، بل حتى أنهم بنوا مساجد في القطب الجنوبي ، تخيل !؟؟

إذا أخبرتك بمدى الهوس الذين أصبحوا فيه ، فسأحتاج لآلاف الكلمات لوصفها، واختصارا، كانوا كلما رأوا خيطا تشبثوا فيه ولم يتركوه أبدا حتى لو كان من عجوز خرف .

زد على ذلك أنه لم يكن هناك حرفيا شخص يتجرأ على قول ما قاله الجد، وبما أن الإمام"علي" هو جار الجد منصور فهو يعرف تماما مدى صدق هذا الرجل .

ذهبوا إليه، وبعد مقدمات حتمية عن كيف صحتك وكيف حالك و شرب رشفات من القهوة، دخلوا في الموضوع .

كان منصور يستمع ، لكنه فوجئ بعدما أخبرهم العجوز أن في الغد يخبرهم عن المكان وقد كان ينتظر بعض الصعوبة بل صعوبة بالغة من حيث هذه الجهة حتى الإمامين لم يصدقوا، فبحسب ما أخبرهم منصور فقد كان الأمر ليكون بالغ الصعوبة.

ـ غدا سأخبركم بالمكان .

هكذا قالها

ثم غطي في النوم وسطهم.

بعدها إنتظر منصور الغد بفارغ الصبر، أثناء ذلك ذهب لجده وهذه المرة هو من جهز له كرسيه الخشبي العتيق، وهو من

حمله عليه، أثناء ذلك أخبر جده أنه يحبه بشدة لكن يبدو أنه كان نائما إبتسم منصور وكانت أمارات السعادة بادية على وجهه .

في الغد ومع الصباح الباكر ذهل منصور بعدد الناس الذين عند منزله 90٪ تقريبا من سكان المدينة، صغا،ر كبار، عجائز، أشكالا وألوانا.

ـ ما هذه ؟؟ كاميرات؟؟ .

كان هناك من يحمل كاميرات لتوثيق هذه اللحظة .

ثم إنتبه إلى أن هناك مسافة وسط بابه على شكل نصف دائرة، قد قام بتشكيلها رجال الشرطة الذين فاجئوه .

يبدوا أن الخبر إنتقل لكل المدينة بل حتى خارجها في ضرف هذا الزمن القصير .

عندها إقترب الإمام علي وصديقه ، راغبين بالدخول وأثناء ما أراد منصور قيادهم للداخل، خرج جد منصور وهو يمشي ببطء من باب المنزل، وقد ساعدته أم منصور وبقيت خلف الباب المغلق علامة على الإستحياء .

أثناء ذلك بدأت تتعالى الإبتسامات والحماس ، قال أحد الأغنياء أنه سيبني مسجدا حتى لو كان في المريخ .

رد عليه أحد البنائين بأنه إذا أراد سيبنيه على طريقة مساجد الأندلس .

ورد آخر ذو نظارات شمسية وبدلة رسمية، أنه يستطيع الدخول لأي دولة وكلما أراد أحد الصلاة فيه سيقوم بدفع تكاليف السفر على حسابه.

قامت الشرطة بتهدئة المكان لكي يتكلم العجوز ويسمعه الجميع وعندما أصبح ساكنا قال العجوز محاولا إيصال صوته الضعيف للجميع:

ـ هذا المكان هو الوحيد الذي لم تبحثوا فيه، وقد نسيتموه وإذا أديتم فيه الصلاة إختفت هذه اللعنة من على كل المسلمين .

هكذا زاد الجميع من حماسهم، كأنه صب الوقود على النار، ليس فقط مكان يستطيعون أن يُصلوا الجماعة فيه، بل مكان سيكون السبب في زوال اللعنة من على كل المسلمين، هذا أكثر بكثير مما طلبوا، فقد كانت أعينهم متسعة وبراقة كأنها نجوم لامعة، و هناك من تسيل عينيه بالدموع كتيار جارف، هناك من سجد على الأرض شكرا لله، وبرغم إختلاف ردات فعل الجميع إلى أنهم اتفقوا على الإستعداد للإنطلاق إليه ـ المكان المقصود ـ بعد أن يدلهم عليه العجوز .

ليقول العجوز "منصور" بإيجاز كعادته :

ـ إنها فلسطين

أصيب الجميع بالجمود وتناقلوا فيما بينهم نظرات تدل على الخيبة، و شفطت وجوههم كل ذرة من الحماسة كانت فيها، ثم

بدأت موجة من التمتمة تنتقل في المكان وقد سمع منصور مقتطفات منها :

ـ ماذاااااا ؟؟؟

ـ أيريدنا هذا الخرف أن نصلي وسط حرب .

ـ نعم خرجنا من مساجدنا عراةً ومجردين تماما من ملابسنا، لكن الفلسطينيين يخرجون مستورين وهم جثث هامدة ، لكن يبقى وضعنا أفضل.

ـ يبدو أننا سنستمر في الصلاة داخل منازلنا للأبد .

كان الجميع يعرفون هذا المكان، لكنهم خزنوه داخل عقلهم في الجزء الخاص بالنسيان .

عندها بدأ الجميع في المغادرة من المكان، ولم يبقى أحد نعم لا أحد، الجميع غادر وكأنه لم يكن هنا، فجأة عم الصمت جميع الأرجاء بشكل مرعب ولم يبقى سوى منصور وجده .

أدرك منصور كلمات جده عندما أخبره أنهم لن يستمعوا إليه، وقد شعر بالخذلان يغمره عندما غادر الجميع فجأة برغم أن جده قد دلهم على فلسطين، وبالفعل تلك الأرض لم تطلها لعنة المسلمين .

عندها سقط جد منصور نائما، لكن هذه المرة قد نام للأبد .

تمت بحمد الله

بقلم :

رعاد إبراهيم الخليل

2003/02/11